منهجية إعداد مذكرة تخرج.

أة. بعارسية

الدرس 5: مرحلة التركيب التاريخي وضوابطه
(تدوين الاقتباس وتوزيع المادة).

ثانيا: مرحلة التركيب التاريخي (الباطني) وضوابطه

التعامل مع المادة العلمية (نقدا وتحليلا وتركيبا).

أولا: النقد هو انتقاد للنفس من الانسياق إلى ما يستهويها فتحكم مسبقا صحته. ثانيا: هو حذر دائم إزاء الوثيقة، لهذا وجب التحقيق (النقد التقني: تاريخ النُسخ) والتحقق (النقد الفكري) (انظر عبد الله العروي: مفهوم التاريخ، ص 115- 116)

وعملية النقد هي في أساسها مجموع الإجراءات التي تؤكد انتساب الحدث إلى الوثيقة، وبالتالي قد يبقى الحدث في مستوى الظن دون أن يستطيع الباحث أبدا أن يقطع بصحته. والنقد لا يسمى نقدا إلا لأنه ينقض رواية سابقة كانت تضع الحدث قبل الوثيقة ولا يلتفت إلى هذه في حالة وجودها، إلا لتأكيد المعلوم. ما يثبت الحدث في منظور التقليد هو اتصال السند، والسند بمثابة وثيقة (شاهدة) جيدة ناطقة معبرة، لا تساويها وضوحا وبيانا أية شاهدة مادية. (انظر عبد الله العروي: مفهوم التاريخ، ص 233)

إن الشك هو بداية الحكمة في الدراسات التاريخية، لأن التسليم بالوقائع كما يقول الفيلسوف سبينوزا "هو نوع من الجبن العقلي"، لهذا يجب إخضاع المادة لنقد خارجي وداخلي صارم.

1. التعامل مع المادة العلمية نقدا:

1.1. النقد الخارجي (الظاهري):

يهدف أساسا إلى إثبات صحة الأصل للوثيقة، والتأكد من صحته وسلامته من أي تحريف يكون قد طرأ عليه، ليقرر ما إذا كان سيقبله الباحث كدليل في بحثه. ويثير الباحث تساؤلات كثيرة لكي يكتشف مصادر المادة الأصلية، ومن ذلك: متى ولماذا ظهرت الوثيقة؟ من هذا الكاتب؟ هل هذه هي النسخة الأصلية التي كتبها المؤلف أم نسخة دقيقة عنها؟... لأن الأصل في التاريخ الاتهام وليس براءة الذمة.

ويتصل النقد الخارجي بالتأكد من صحة نسبة الوثيقة أو القول أو الأثر إلى زمن معين أو ثقافة معينة أو شخص معين، وذلك بمراجعة الوثيقة على ضوء معطيات العصر أو ملامح الثقافة أو أسلوب الشخص المنسوبة إليه. كما يتم النقد الخارجي أيضا عن طريق التأكد من المصدر، فإن كان كاتبا

بالرجوع إلى مكانته العلمية وأمانته بين الكُتّاب، وإن كانت جهة ما يكون التأكد بالرجوع إلى الأغراض التي تخدمها هذه الجهة. ومن الأمثلة على النقد الخارجي عدم قبول وثيقة زواج موقعة من صاحبة العلاقة في قرية كانت نسبة الأمية بين النساء فيها تبلغ 100 في المائة، وعدم قبول وثيقة ولادة أصلية مكتوبة باللغة الفرنسية من شخص يقول أنه استخرجها من لندن، أو رفض وثيقة مكتوبة بالعربية المنقطة، على اعتبار أنها من عهد الرسول، حيث لم يجر التنقيط في اللغة إلا فيما بعد...

ينقسم النقد الخارجي إلى:

1.1.1. نقد التصحيح:

يقوم على أساس التحقق من صحة الوثائق التي لدى الباحث عن الحادث، إذ يجب معرفة: هل الوثيقة صحيحة؟ أي أنها الوثيقة الحقيقية التي كتبها صاحبها. فكثيرا ما يدخل في الوثائق كثير من الحشو أو قد يضاف إليها كثير من الإضافات الزائدة المقصود بها الإكمال، وأحيانا يكون النص محرفا في بعض أجزائه وأحيانا يكون مزيفا تماما.

2.1.1. نقد المصدر:

لهذا لا يكفي أن تكون الوثائق صحيحة وكما كتبها واضعها، وإنما يجب أن يضاف إلى هذا معرفة مصدر الوثيقة، مؤلفها، تاريخها. ذلك أن الوثائق تختلف في قيمتها اختلافا شاسعا من حيث صحة نسبتها لواضعها الأصيل أو إلى من ذكر اسمه كواضع لها، لأن كثير من الوثائق قد تُزيف لعدة اعتبارات. فمثلا نجد كثير من الكتب نُسبت لأفلاطون مع أنه ليس مؤلفها وذلك لترتفع قيمتها. لهذا يجب الاحتراز مما قد يدخل على الوثيقة من إضافات أو تعديلات.

يتضح هكذا أن النقد الخارجي لا يهتم بنقد الوثيقة والمصدر، بل ينصب على ظاهر الوثيقة لأنه يرمي إلى التأكد من صحتها وإثبات نسبتها لصاحبها، لأن الباحث إذا أهمل الجانب الأساسي قد يعتمد على أصول مزورة تؤدي لنتائج بعيدة عن الحقيقة التاريخية.

2. التعامل مع المادة العلمية تحليلا:

1.2. النقد الداخلي (الباطني):

يهتم بالتحقق من معنى وصدق المادة الموجودة في الوثيقة. وينصب على صلة مؤلف الوثيقة التاريخية بالأحداث وموقفه منها، من خلال التعرف على حالته النفسية والغرض من تسجيله الأحداث ومدى اقتناعه بما كتبه، أو أنه سجله تحت تأثير ما. ويهتم النقد الباطني أيضا بأمانة المؤلف ودقة معلوماته ونظرته للأحداث. وينقسم إلى:

1.1.2. النقد الباطني الإيجابي:

يعتمد على تحليل مضمون الوثيقة لفهمها فهما صحيحا، وإدراك ما أراده منها صاحبها. ويتطلب الأمر تحليلا شاملا، يتمثل في العملية اللغوية والتاريخية والجغرافية لألفاظ الوثيقة، ما يضطر الباحث اللجوء إلى العلوم المساعدة للتاريخ (الفيلولوجيا وعلم اللغة، علم الأسماء، الجغرافيا، الكرونولوجيا...) لمعرفة دلالات الألفاظ وضبط أسماء المدن والمواقع والأحداث.

2.1.2. النقد الباطني السلبي:

يُركِّز على الظروف التي كتب فيها النص التاريخي، لضبط أقوال كاتبه وإثبات صحتها ومدى مطابقتها للحقيقة التاريخية، وذلك بالتثبت من صدق المؤلف وعدم انخداعه ووقوعه في الخطأ. إضافة لتحليل شخصية المؤلف، بمعرفة موقفه من الأحداث ومدى نزاهته وأمانته في نقل الخبر. وهذا دون إفراط في الشك، بل يكفي التعرف على الغرض الذي من أجله كُتبت الوثيقة، علما أنه كلما اتسعت ثقافة كاتب الوثيقة، وكان أكثر خبرة واطلاعا على الأحداث كلما ازدادت درجة الثقة فيه.

3. التعامل مع المادة العلمية تركيبا (الصياغة التاريخية):

الصياغة التاريخية عملية تدوين تهدف إلى إعادة البناء التصوري للماضي من واقع الحقائق المستخلصة، عن طريق عمليات الجمع والنقد المذكورة أعلاه. وهذا ما جعل الإنشاء التاريخي يقوم على استنتاج الأحكام وتفسير الوقائع، من خلال تحليل المعلومات وتركيبها وعرضها في أسلوب تاريخي (حسن العرض، سلامة اللغة، وضوح المعنى، دقة الوصف).

1.3. التحليل التاريخي:

يقوم على الموضوعية والعقلانية والإقناع، لهذا على الباحث عدم التأثر بالأسطورة والخرافة، وتجنب الخضوع للسلطة، والابتعاد عن التعصب الأعمى، لتنافي هذا والنظرة الموضوعية والتقييم العقلي، بل يقيم حاجزا على الفكر والمعرفة والاجتهاد، ويؤدي إلى تفسير قوانين الحياة بظواهر الأمور، ما ينتج عنه انغلاق العقل وعجزه على التحليل وقصوره عن إبداء وجهة النظر الشخصية.

2.3. التركيب التاريخي:

هو خلاصة القواعد والنظم المطبقة في المنهج التاريخي. ويتم عبر جمع الحقائق بعد صياغتها وترتيبها زمنيا في مجموعات على شكل أقسام متجانسة، وتصنيفها حسب طبيعتها الداخلية، سياسية كانت أو اجتماعية أو اقتصادية أو فكرية أو روحية أو إدارية أو قانونية... مع ملء الفجوات التي نتجت عن فقدان المصادر التي تظهر بعد التصنيف، وذلك بالرجوع إلى موازنة أحداث الماضي بالحاضر، وإيجاد علاقة لتلك الحقائق المصنفة ضمن الهيكل العام للبحث، للوصول إلى تعميمات وأحكام ونتائج ذات معنى تكسب التركيب التاريخي صفة الإيضاح والتحليل والاستنتاج والاجتهاد. لهذا على الباحث التركيز،

عند قيامه بعملية التركيب التاريخي، على تكوين فكرة واضحة لكل حقيقة من الحقائق المتجمعة لديه، بحيث تُكوِّن في مجموعها الهيكل العام.

3.3. الإنشاء التاريخي:

يكون بعرض الأفكار بلغة سليمة وبأسلوب سلس يجمع دقة المعنى وصحة المبنى، ولهذا يجب على الباحث:

– إجادة اللغة ليستطيع التعبير عن الحقائق التاريخية التي توصّل إليها بصدق وأمانة ودقة، دون تشويه للحقائق أو حذف للأفكار أو تحريف للمعاني عن مسارها.

– امتلاك الأسلوب ليكون العرض التاريخي بسيطا بعبارة مركزة بعيدا عن تكرار المعاني، مع بناء محكم للفقرات ليكون العرض التاريخي ذا قيمة أدبية. مع الابتعاد عن الإبهام والاستطراد والإطناب والإيجاز، متجنبا إطالة الفقرات، والالتزام بالتناسب والاستمرار بمعالجة كل فكرة في فقرة واحدة.

– حُسن التبليغ بالتقيُد بالتركيز والوضوح، بتجنب صيغ الجزم والحتمية والمبالغة، واضعا نصب عينيه أن ما يكتب ليس لنفسه وإنما ليبلغ ما يكتبه للقارئ. إضافة لرصانة العبارة والابتعاد عن الإسفاف، مع تجنب الكلام المنمق والعبارات المتحيزة والمطاطة والكلمات الدارجة، وعدم ذكر الألقاب والوظائف المتصلة بالأشخاص إلا إذا كانت لها صلة بالفكرة التي يعالجها.

إن الصياغة الجيدة التي تعتمد الكتابة المباشرة بطريقة بسيطة تهدف لعرض الأفكار وإبراز التصور العام للبحث.